الفدائي العربي

واثره على الأدب والفن

بقلم علي بدور

يجتاز الادب والفن مرحلة المعاناة والخلق ، كلما تعرض الفكر الى محنة البقاء والفناء . اذ بين ان يبقى الفكر عنوانا لشخصية الامة في اللغة والتاريخ وبين ان يضمحل الفكر من خلال ذوبان اللغة والتاريخ امام ضغط الاحداث ، يكون المعيار عند ذلك كله تألق الادب والفن ، او انطفاء المعاني التي تستمد من الفن طريق خلودها في الحياة ، وليس هناك من طريق وسط . فالادب والفن يتألقان في ازمات اثبات الوجود القومي حيث تستطيع روح الامة ان تبدع مبرر بقائها وان تجعله بقاء خالدا كلما كان الاصرار على ان تعطي الحياة لذاتها وهجا خالدا يجعل للتضحية معنى القداسة في الولادة من جديد ، فلا يقضي على الفناء مثل مده بالحياة لتوهج الشعلة من جديد وتجعل الخلود في الحياة حياة ، والخلود في الموت حياة .

وقد اجتاز الادب والفن العربيان منعطفا تاريخيا حاسما بعد نكسة حزيران ، اذ على الرغم من ان الحادث ـ حادث حزيران ـ هو حادث سياسي في مجمله لكنه في حقيقته الموضوعية كان وقفة على اعماقنا وافكارنا ومشاعرنا ، على كل شيء كنا نتمسك به .. انه موقف حاد وواضح لم يجعلنا نرفض كل ما اعتدنا عليه ، ولكنه اكد لنا ضرورة خاصة هي اننا كنا على شيء من الوهم الكاذب في بعض ما اعتقدنا انه وضوح صادق . اذ في كل جانب من جوانب حياتنا العامة والخاصة كنا ننظر اليه من خلف زجاج شفاف ، وكان الزجاج الشفاف احيانا ملونا ، ومن مزايا الزجاج الملون اخفاء العيوب وتجسيم الحسنات وملء النفس غرورا كاذبا .. ليس فيه من صدق الواقع ما يبعث على الامل عندما يكون مرتكزا على ارض صلبة .

واذا كان العرب قد اعادوا النظر في كثير من امورهم وافكارهم واحلامهم وآمالهم ، فان الكتاب والفنانين بخاصة كانوا اكثر الفئات تحسسا بطعم الجرح الصامت الذي فجّر دماء غزيره في اعماقهم حتى غرق كل اديب وفنان بدمه ، فلا هو ميت ، ولا هو مستطيع ان ينقذ نفسه . وخلال هذا العذاب الذي كان يتواتر ليلا ونهارا ، كان الفكر العربي بعامة يسترجع ماضيه كله ، عصوره الذهبية كلها ، ضوء وجدانه الحي ، ونور ايمانه المطلق باثره ودوره في الفكر العالمي والثقافة الانسانية . واذا كان بعض الكتاب لم يهتدوا الى جواب حتى الآن فان الفكر العربي يجيب عن نفسه بنفسه : انه لم ينتكس قط لا في حزيران عام ـ ١٩٦٧ ـ ولا قبله : لقد كانت النكسة، نكسة في الوسائل المادية فحسب ، ولكن الفكر العربي ظل وسيظل صامدا ومؤثرا في الحياة العربية وباعثا في ملايين العرب قوة مضيئة تجعل الاستعداد لرد النكسة متفقا ورد الآباء والاجداد على ما حفلت به عصورهم من مناسبات النصر ومناسبات الضعف .

لقد شجعت النكسة على اعادة النظر في اكثر الاشكال الادبية والفنية ، بحيث تتخلص من رواسب الضعف والميوعة لتجعل الادب والفن صفة ملازمة للابداع والخلق الرفيع . واذا كان ليس سهلا التحدث عن تطور ما في اي شيء بعد نكسة حزيران ، فان الواضح ان مواضيع جديدة طرحت نفسها على الاديب العربي ، شاعرا كان ام كاتبا ام قصاصا .. وفي مجال القصة بالذات كان ادب المقاومة وقصة المقاومين تلك القصص الحية التي تستمد عناصر فنيتها وابداعها من واقع الحياة التي يحياها المقاومون العرب داخل الارض المحتلة ، مما جعل الادب القصصي الذي ولد بعد النكسة ، الادب الحي الذي يعبر من خلاله الكتاب العرب عن حماسة الفدائيين وتطوعهم للتضحية بالنفس وهم يجودون بالغالي من الدم

مخلفين وراءهم عالما من البطولة الفردية والجماعية ، دون ان يكون الكاتب القصصي بعيدا عن ذلك كله لانه قريب من الحدث الفني الذي يستمد جذوره الفنية مما طرحه ادب المقاومة وفي مجال القصة العربية بالذات .

ولعله لاول مرة ، يتوازن الانفعال الفني في نفس الكاتب ، والانفعال الانساني في نفس المقاوم ، ويستمر هذا التوازن ، بين هذا الذي يستلهم واقع المقاوم وطموحه وتضحيته وبين ذاك الذي يصوغ هذا الموقف البطولي للفدائي ويجعل منه اثرا فنيا ، ليكون هناك ادب المقاومة، الادب الذاتي ، الادب الجماعي في الوقت نفسه ، دون ان تضمحل الطاقة الفنية في ادب الذات او ادب المجموع ، لان الامة وهي ترفض القبول بالامر الواقع وتأبى على نفسها الاستمرار في الخضوع لمنطق القوة المفروض عليها، يبرز من خلال ذلك كله ادب المقاومة ملتهبا بالروح الفردية والروح الجماعية ، معبرا عن هذا الرفض باشكال شعرية وقصصية ونثرية ، مستلهما قبل كل شيء ، ذلك الفكر المعبر من خلال اللغة والتاريخ القوميين عن وجدان حي ، يأبى على الامة صمت الذليل ، دافعا بالاثر الفني الجديد كمظهر من مظاهر الرفض الفكري ، ودافعا بالمقاوم الى اعماق الارض المحتلة ، منتصرا في معركتين :

ـ معركة يسجل فيها الفكر برفضه وابائه اشكالا جديدة في التعبير والتفكير تتصف بمضامين غنية بالحياة والامل .

ـ ومعركة يكون الموت فيها انتصارا على الذات ، ويكون فيها حب الحياة بالموت انتصارا على النكسة في الوقت نفسه .

لقد قيل كلام كثير بعد النكسة ، حول ما يجب عليه ان يكون الادب والفن ، ودعا كثير من الادباء والفنانين والنقاد بخاصة الى ايجاد ادب وفن جديدين يستطيعان تحمل تبعة رد النكسة عن الفكر العربي ويفتحان امامه طريقا لتأكيد قدرته على هذا الرد . وولدت بذلك طرائق جديدة من التعبير شعرا ونثرا وقصصا ، وكانت لاول مرة في ادبنا العربي النماذج القصصية معبرة عن واقع حال الفدائي الذي يجتاز حدود الارض المحتلة ويصل الى قلب العدو وهو يمزق فيه كل يوم شريانا ويقطع وريدا الى ان ينزف دمه كله ذات يوم .

لقد كان الكتاب حيال الفدائي اشبه ما يكونون بمجموعة من الرسامين الذين يحاولون ان يرسموا عن جسم بشري متناسق امامهم . قد يرسمون لوحات معبرة ولكن النموذج البشري المتناسق الحي يظل اللوحة المعبرة عن ذاتها .. والى اليوم كلما طالع القراء العرب اثرا فنيا عن المقاومة ظل هذا الاثر مقصرا بعض الشيء عن بلوغ منتهى الفن من الصور التي يطرحها الفدائي وهو يرسمها على الارض المحتلة بدمه .

ولكن الفكر العربي وهو ينقد نفسه ، لا بد له من ان يتأكد لاول مرة او لآخر مرة ان المباراة بين طرازين مختلفين من الحياة وعندما يتصارعان ، فان الغلبة سوف تكون للفكر الذي يستمد اسباب بقائه من لغة وتاريخ قوميين يجمعان حولهما كل طاقات المقاومة لتأكيد اثر اللغة في نفوس الملايين وروح التاريخ على الحياة والافكار، لان كل اهمال للغة القومية والتاريخ القومي يضعف من قوة التحدي التي تبذلها الامة العربية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها . والصراع بيننا وبين الصهيونية ليس صراعا عسكريا فحسب ، انه صراع شامل طويل وعنيف . فاما نحن العرب واما الصهاينة على المدى الطويل : سادة المنطقة تراثا وحضارة وشعبا ومجتمعا .. وكلما رسخنا حصوننا في حربنا الطويلة ودعمنا هذه الحصون باللغة والتاريخ العربيين ، كلما سمحنا للفكر ـ وهو قوة لا تغلب ـ ان ينفذ ويؤثر في كل مظهر من مظاهر حياتنا السياسية والاجتماعية والعسكرية ... كلما اكدنا حرصنا على الادب والفن الاصيلين .. كلما غرسنا في نفوس الاجيال شعلة متوهجة تنير لها الطريق وتجعل نشدانها الخلود في الحياة الحرة حياة .. ولو كان الموت ثمنا لهذه الرغبة السامية .

لقد كان وسيظل طريق الشعوب الحرة التي تريد ان تحيا على ارضها حياة كريمة مفروشة بالدم .. والنار .. ولن تصل امتنا العربية الى شاطيء الامان ما لم تدفع ضريبة الدم عن هذا الجيل والاجيال المقبلة .

حلب — علي بدور